

فكرة التقدم وانعكاساتها ومآلاتها على منظومة القيم عند هابرماس.

The idea of progress and its implications and consequences for Habermas's value system.

محمد عاشور^{1*}؛ نورالدين خنوس².

¹ -المركز الجامعي نور بشير؛ البيض (الجزائر).

-مخبر: الأنساق، البنيات، النماذج والممارسات: الفلسفة، العلوم

الاجتماعية والترجمة؛ جامعة وهران²؛ (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: med.achour@cu-elbayadh.dz

² - المركز الجامعي نور بشير؛ البيض (الجزائر)

- البريد الإلكتروني: n.khenhouse@cu-elbayadh.dz

تاريخ الإرسال: 2025/07/07؛ تاريخ القبول: 2025/10/13؛ تاريخ النشر: 2025/12/15.

الملخص:

من المتفق عليه أن التحولات الحاسمة في مسرح التاريخ تفرز دوما وعيا تاريخيا، يدفع المؤرخين إلى التأريخ لتلك الأحداث الهامة، فيعمدون إلى تفسير ما يحدث من تغير في مسارات التاريخ تبعا للآثار التي أحدثتها تلك العوامل على أنشطة البشر المختلفة. ذلك ما وقع في القرن السادس عشر، وما تلاه من تحولات جديدة صنعتها الثورة العلمية الأولى مع مجموعة من العلماء أمثال كوبرنيك، وغاليلي، ونيوتن، وديكارت وغيرهم، كان أولها القول بمركزية الشمس بدل

الأرض مع دورانها. لكن مع انتقال عدوى الثورة إلى ميادين أخرى، سواءً على المستوى المعرفي، أو السياسي، أو الديني أو الأخلاقي، أدى ذلك إلى تشكل نموذج معرفي جديد يؤمن بالعلم مطلقاً، على أنه السبيل الوحيد نحو حتمية التقدم، وأن التاريخ الإنساني لا يتجه إلا نحو مستقبل أفضل. لكن بموازاة مع ذلك، فقد أدى إلى ضرر كبير أصاب منظومة القيم الإنسانية. ما جعل الفيلسوف يورغن هابرماس يعمد إلى تشخيص أمراض الحداثة الغربية قصد تقويمها، لإعادة بعث قيم التنوير.

الكلمات المفتاحية: فكرة التقدم؛ القيم؛ العلم والتقنية؛ التنوير؛ التدهور.

Abstract:

It is agreed that decisive transformations in the theater of history always produce historical awareness, prompting historians to chronicle these significant events. They attempt to explain changes in historical trajectories based on the effects these factors have had on various human activities. This occurred in the 16th century, followed by new transformations brought about by the first scientific revolution, led by a group of scientists such as Copernicus, Galileo, Newton, Descartes, and others—the first of which was the heliocentric theory replacing the geocentric model. However, as the revolution spread to other fields—whether in knowledge, politics, religion, or ethics—a new epistemological model emerged, one that fully embraced science as the sole path to inevitable progress, asserting that human history moves only toward a better future. Yet, simultaneously, this led to significant harm to the system of human values. This prompted the philosopher Jürgen Habermas to diagnose the ailments of Western modernity in an attempt to reform them and revive Enlightenment values.

Keywords: Idea of progress; values; science and technology; Enlightenment; decline.

مقدمة:

تقوم فكرة التقدم على استشراف قيم وتصورات جديدة مغايرة تماما لما كان سائدا في القرون الوسطى، لذلك كانت القطيعة مع كل المرجعيات الكلاسيكية، سواء الدينية ممثلة في الكنيسة التي كانت تتكئ على النص المقدس في التأسيس والتنظير لكل ما يخص الوجود والحياة الإنسانية: في معنى الحياة، والخلقة، في مفهوم السعادة والشقاء، الخير والشر، في علاقة الناس ببعضهم البعض، علاقة الإنسان بخالقه، في التنظيم السياسي، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، إضافة إلى المرجعية المعرفية التي استندت أكثر على العقلانية الأرسطية، سواء في الانتصار للعقائد الدينية بالحجج العقلية، أو في نمط الاستدلال القائم على نظرية القياس، التي تم الطعن فيها بسبب عقمها وطابعها الفارغ واستبدالها بالأرغانون المعرفي الجديد مع فرنسيس بيكون القائم على العقلانية التجريبية، أو مع ديكارت في اعتماده على العقل الذي أراد أن يحرره من كل الأفكار المسبقة التي لا يتوفر فيها شرطا الوضوح والبداهة...، كل ذلك أنتج عقيدة راسخة، وهي أنه لا إيمان إلا بالعقل والعلم من أجل تحقيق التقدم وبالتالي بلوغ الكمال الإنساني من عدالة وسعادة ورفاهية..

لكن التجربة التاريخية الحديثة والمعاصرة كشفت عن الكثير من الممارسات ذات الصلة بالعلم وبالتطبيقات التقنية، إذ أنها أفرزت الكثير من مظاهر الانحطاط وتراجع القيم، وقد برزت في أشكال من اللاعدالة وتشيء الإنسان واستعباده، والحروب، وفقدان للمعنى...

وهي بذلك جاءت على عكس ما كان يأمله ويتطلع إليه الفكر التنويري خاصة. ذلك ما جعل يورغن هابرماس كواحد من الفلاسفة المعاصرين يعمل على تشخيص الأمراض الاجتماعية التي أنتجها الاعتماد المطلق على العلم والتقنية، (العقل الأداتي)، لي طرح نظرية الفعل التواصلي كمخرج لذلك. وهذا يدفعنا إلى طرح تساؤلين مشروعين:

الأول: ماهي المنطلقات الفلسفية التي قامت عليها فكرة التقدم؟

الثاني: ما هي الانعكاسات السلبية تحديدا لفكرة التقدم

العلمي على منظومة القيم، خاصة عند هابرماس؟

1 -فكرة التقدم كمفهوم:

تمثل فكرة التقدم من أخطر المفاهيم التي عرفت البشرية في التاريخ الحديث، وخاصة في القرن الثامن عشر الذي عرف بعصر التنوير، إذ أضحى التقدم هاجسا إنسانيا وجوديا فيما يرتبط بكل تفاصيل الحياة الاجتماعية، اقتداء في ذلك بالتقدم العلمي الذي عرفتة العلوم التجريبية بفضل منهجها المثالي القائم على الملاحظة والتجربة، حيث تم فك أسرار الطبيعة، وذلك بالكشف عن القوانين التي تحكم ظواهرها، ومن ثم السيطرة عليها والتحكم فيها. ويتحدد مفهوم التقدم من حيث مضامينه ودلالاته فيما يلي:

ففي المعجم الفلسفي يذكر إبراهيم مدكور أن التقدم هو السير إلى الأمام عموما، وفي اتجاه محدد دون الحكم على قيمة هذا السير. أما على الوجه الخاص فهو انتقال تدريجي من الحسن إلى الأحسن كالتقدم العلمي والتقدم الحضاري ويتميز بخاصيتين، أولها:

أن يكون مسبقا بتخطيط، وثانيا يستهدف غاية ما(مدكور، 1983: 51)، مقارنة بفكرة التطور التي لا ترتبط بأية غاية، باعتبارها لا تعدو أن تعبر عن مختلف التحولات سواء كانت ملائمة أو ليست ملائمة (مدكور، 1983: 47). أما اللفظ (التقدم: *Progress*) كما يراه عبد الوهاب المسيري فيقول إنه من الفعل تقدم، أي سار أو انتقل إلى الإمام، ولفظ التقدم يعكس كل حركة تتجه نحو أفضل الأحوال، أو إلى وجهة مرغوبا فيها. وقد بدأت الفكرة التقدم تتضح وتبلور أكثر فأكثر مع مجموعة من فلاسفة التنويريين مثل فيكو، وفولتير، وتيرجو، وكانت، ثم تظهر فكرة المراحل أو التطور في فكر "أوجست كونت" ثم هيغل وماركس، وفي مجال البيولوجيا مع داروين التي يمكن اعتبارها الأخطر بفعل تداعياتها على القيم. لذلك احتلت فكرة التقدم موقعا أساسيا ومركزيا في فكر الاستتارة، ثم لتبلغ ذروتها في أواخر القرن التاسع عشر، نتيجة الكشوفات العلمية التي تحققت وتأثير ذلك على الحياة الاجتماعية.

وترتكز نظرية التقدم على العديد من المفاهيم والمنطلقات، التي بدورها ستكرس القطيعة مع الكثير من القيم، وفي المقابل التبشير بقيم جديدة يصنعها التقدم العلمي، منها مثلا:

-الإيمان الكلي بالعقل، لذلك فهو لا يحتاج إلى أي عون أو ترشيد خارجي مهما كانت قدسيته، باعتبار أن العقل قادر على معرفة الطبيعة، والسيطرة عليها، فالتطور يكسب العقل مزيدا من المنطق والرشد، ومن ثم تكون المعرفة الإنسانية تظل تتراكم بشكل مطرد وبلا نهاية.

-التقدم عملية خطية ذات اتجاه واحد لذلك كانت عالمية، ووفق قانون عام واحد في كل المجتمعات، لذلك يفترض المفهوم وجود تاريخ إنساني واحد، فما يصلح لتشكيل حضاري وتاريخي معين يصلح لكل التشكيلات الأخرى (الوحدة التاريخية للوجود)، وهو يتم بلا مرجعية، لأن مرجعيته هي ذاته، وفي كل المجالات، المادية والإنسانية ودون التمييز بينهما، وهو عملية لانهائية هدفه زيادة المنفعة، ما يعني ضرورة تخلي كل الشعوب عن معتقداتها ومقدساتها، أو التضيق من دائرتها فيما يتعلق بشؤون الحياة كلها (التأكيد للمركزية الحضارية الغربية).

-إن آلية التقدم مجرد حركة أو عملية، بحيث لا علاقة لها بأية قيم دينية أو أخلاقية أو إنسانية، فهي تخلق من أية غائية إنسانية محددة أو مضمون أخلاقي محدد، وهو ما يجعل القيم عرضة للتساقط والتبدل، تبعا لتغير الأحوال والظروف (النسبية)، كما أن صيرورة عملية التقدم تتم خارج إرادة الأفراد لذلك لا يمكن إيقافها، باعتبار أن حركة التاريخ تدفعه قوانين موضوعية، وهي قوانين الطبيعة الكامنة فيها).

-أضحى التقدم يكتسي مضمونا ماديا كميا للإنسانيا، مادام أنه يجعل هدف الإنسان في الكون في بضعة أهداف نهائية مادية، من خلال مؤشر الإنتاجية ومعدلات الاستهلاك، وكلها تركز على قياس الثمرة المباشرة العاجلة والمحسوسة (المسيري، 2004: 1، 3).

2 -أصول فكرة التقدم وذروتها التاريخية:

لقد برزت بذور فكرة التقدم كواحدة من القيم الأساسية الجديدة مع القرن السابع عشر بعد عصر النهضة، الذي يمكن وصفه بأزمة التمرد والثورة على الوعي الذي كان سائداً ومتحكماً إبان القرون الوسطى التي وصفت بالظلامية والجمود والقهر (أنظر التعليق رقم 1)، حيث أدى ذلك إلى ظهور وعي جديد يركز على شيئين أساسيين، الأول: استعادة العقل الانساني الثقة بنفسه بعد الحجر والتضييق، أما الثاني: فهو التحرر من طغيان الكنيسة ورجالاتها التي كانت تمثل السلطة والقوة التي كانت تدعي امتلاكها للحقيقة المطلقة أيا كانت، وخاصة بعد أن تسلم اللاهوت المسيحي بالعلم الأرسطي، الذي أضحى مرجعاً لتفسير وفهم ظواهر الكون كلها. إن فكرة التقدم التي تتكئ على العقلانية التجريبية من أجل التحرر من الثقافة الكلاسيكية بكل مؤسساتها، والتأكيد في المقابل على ضرورة الاعتراف بقيمة الحياة الدنيوية لإشباع مختلف اللذات والمتع المتاحة للإنسان بعيداً عن المخاوف التي كان يبتها فكر القرون الوسطى.

تبدأ فكرة التقدم من خلال ما يمكن وصفه بالبذور الأولى التي وضعت من طرف بعض الفلاسفة والعلماء موازاة مع الكشوفات العلمية الجديدة التي ظهرت على مسرح التاريخ الحديث، بغية تفسير التحولات الجديدة للتاريخ والحضارة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن فكرة التقدم لم تكن حاضرة في القرون الوسطى أو قبلها، سواء عند اليونان أو الرومان، مع بعض الاستثناءات عند بعض فلاسفة اليونان، لأن الذي كان سائداً هي نظريات وتصورات غلب عليها طابع التشاؤم والتدهور والانحطاط وعدم النظر إلى المستقبل، وذلك لعدة أسباب:

أولها: النظر إلى القدماء الرومان واليونان تحديدا أنهم بلغوا الكمال المعرفي سواء في الفلسفة أو العلم وأنهم أهل السمو والمجد بحيث يصعب لأي جنس بشري أن يحقق ما حققه الفكر القديم مع سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم... فيكون من العبث البحث عن المعرفة خارج ذلك، ثم نظرهم إلى المعرفة على أنها مطلوبة لذاتها فقط ولا علاقة لها بواقع الانسان أو حياته اليومية، إضافة إلى ازدياد واحتقار المعرفة التي ترتبط بالعمل والواقع التي لا تليق بالأشراف والسادة، لأن ذلك شأن العبيد فقط.

ثانيها: إن الذي يجعل فكرة التقدم حديثة، لأن الذي كرس الجمود وعطل انطلاقة الفكر الخلاق، هي نظرة الفكر اللاهوتي المسيحي للإنسان والتاريخ، فمثلا طبيعة الفكر عند القديس أغسطين ومؤمني القرون الوسطى طغت عليه النظرة التشاؤمية للإنسان بسبب السقطة أو الخطيئة الكبرى التي جعلت منه الإنسان الشرير المذنب، حيث لا أمل في تقدمه نحو الكمال أو تحسنه وسعاده في دار الدنيا، وإرجاء ذلك وتأخيرته إلى الدار الآخرة كدار للنعيم الأبدي، وأن حركة التاريخ لن يعبر عن أي تقدم طبيعي أن أحداثه جاءت نتيجة للتدخل الإلهي... (بيوري، 1982: 43).

إن البذور الجديدة لفكرة التقدم الإنساني نجدها مع الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون (1561 - 1626)، بعد أن أضحت فكرة المعرفة عنده كوسيلة أو أداة لتحقيق ما ينفع الانسان في حياته الدنيوية، وليست مشروعا مطلوبا لذاته أو تحقيقا للمتعة الفكرية النظرية كما كان يزعم فلاسفة اليونان، واصفا ذلك بأنه ضرب من

الحكايات والتقاليد العتيقة التي لم تعتمد على أية تجربة واحدة، لأن الأصوب يكون بتوجيه الفكر نحو الاشتغال بسؤال الطبيعة فقط، من خلال الاعتماد على المنهج التجريبي الاستقرائي، علما أن سيكون عاصر وعائش الثورة العلمية وإنجازاتها الأولى، لذلك آمن بالعلم القائم على التجربة كمشروع جديد يمكن أن يزود الانسانية بالمخترعات والكشوف الجديدة كطريق للتقدم (أنظر التعليق رقم 2). تتأسس رؤية سيكون، على أن المعرفة الصحيحة لا يمكن أن تكون إلا بالاعتماد على التجربة كمفتاح لكشف أسرار الطبيعة، ومن ثم تحقيق التقدم العلمي المطرد الذي يجعل الإنسان قادرا على أن يسيطر على الطبيعة اعتمادا على منهج جديد سماه بالأرغانون الجديد الذي يقابل الأورغانون القديم الارسطي القائم على نظرية القياس الموصوفة بالعقم. وقد اعتبر سيكون أن الغاية من المعرفة الصحيحة هو رفع مستوى حياة البشر وزيادة سعادة الناس والتخفيف من شقائهم، ونجد لدى سيكون تلميحا وإشارات إلى الأهمية الاجتماعية للعلم في مخططة للدولة المثالية "أتلانتا الجديدة" التي تقوم على أهم شيء، وهي المؤسسة العلمية التي تتضمن الباحثين العلميين، ودورها الاساسي هو الكشف عن الحقائق التي تنفع الناس، وخاصة السيطرة على الطبيعة (بيوري، 1982: 71).

إلى جانب سيكون، يمكن النظر إلى روني ديكارت "أب الفلسفة الحديثة" أنه كواحد من الذين ساهموا في ميلاد فكرة التقدم التي نضجت فيما بعد وخاصة في عصر الأنوار، فليس غريبا أن ينال ديكارت ذلك الشرف، فمنهجه الجديد الذي قام على أنقاض البرهان الأرسطي العقيم "نظرية القياس"، فبعد أن شكك في المعرفة

الحسية، آمن بالعقل وحده، واعتبره أعدل الأشياء قسمة بين الناس، ما يؤهله ليكون السبيل الوحيد للمعرفة الصحيحة الموصفة بالوضوح والبداهة، معتمدا في منهجه على طريقة البرهنة الرياضية، حيث يبدأ بالشك ثم التحليل للأفكار والقضايا المركبة، ثم إعادة التركيب، فالإحصاء بغرض التأكد من مدى صحة النتائج.

لقد تأسست فلسفة ديكارت على بديهيتين أساسيتين يمكن اعتبارها من إسهاماته فيما يتصل بنظرية التقدم، تتمثل الأولى: في اعتقاده بسيادة العقل الإنساني، والثانية في ثبات قوانين الطبيعة، إن الإيمان الديكارتي بالعقل ومدى قدرته على المعرفة هو إعلان حقيقي عن استقلال الإنسان والاكتفاء بذاته، حتى فيما يتعلق بنظرية الإرادة الإنسانية الحرة أو العون الإلهي، أما النظر إلى ثبات قوانين الطبيعة واعتبارها بمثابة الآلة، سيمكن الإنسان من معرفة قوانينها، ومن ثم السيطرة والتحكم في الطبيعة، وهو تأكيد صريح من ديكارت على قدرة الإنسان وقوته الإيجابية، مقارنة بالحالة السلبية التي كان عليها الإنسان في القرون الوسطى (بيوري، 1982: 99).

1.2. صراع القديم والجديد:

ترسيخا لحتمية التقدم، فإن القرن السابع عشر عرف بعضا من المشاحنات والنقاشات الفكرية الحادة بين أنصار التراث القديم وأنصار التراث الحديث، حول إظهار دور ومزايا القدماء والمحدثين، ونسبة التفاضل بينهما في مجالات المعرفة عموما، وهي المشاحنات التي ستغذي فكرة التقدم وتوطدها نظرا لما تتضمنه من مظاهر النقد

والتمرد ضد الأفكار والقيم التي اعتبرت قيودا وعوائق عطلت أو أخرت التقدم الإنساني، لذلك ثمة طرح إشكالات أساسية على غرار:
-هل يمكن وضع أبناء العصر الحالي في منزلة مساوية ومكافئة للقدامى أم أنهم أقل شأنًا منهم؟

-ألا يمكن للإنسان الحديث أن يتميز وأن ينتج ما هو أفضل وأرقى مما كان عند القدماء، وهل ترتبط الحكمة مع القدماء أم المحدثين؟

أمام هذه الاشكاليات ظهر موقفين، الأول: كان الطرح المناصر والمنافح للقدماء باعتبارهم أسبق زمنا وأكبر عمرا وأكثر حكمة، وبالتالي أنضج رؤية ورأيا، ومصدر هذا الادعاء هي الفكرة التي مفادها أن المجتمع الإنساني يشبه الإنسان تماما بحيث كلما طال عمره كلما أصابت حكمته، فالتقدم بالنسبة لهؤلاء هو الرجوع إلى آراء القدماء (أي الرجوع إلى التراث) واعتبارهم نموذجا للتقدم ينبغي إعادة تحقيقه وتكراره. أما الذين يناصرون الحداثة فإنهم يرفضون هذا التشبيه، لاعتقادهم أن الحكمة في المستقبل وليس في الماضي، لأن الإنسانية تكتسب حكمة أكثر مع تقدم العمر كما هو الحال مع الإنسان، ما يجعل التقدم في العمر يلازم الحكمة والتعقل، وبالتالي فالحكمة تتجه نحو المستقبل وليس نحو الماضي، وهو ما يجعل القدماء هم شباب الإنسانية، أما المعاصرون فهم شيوخها، فتكون حكمة المحدثين أصوب من حكمة أجدادهم، ومن ثم القول بوجود عقول أكثر رقيا وتقدما ونضجا ولو من أمثال أفلاطون وأرسطو وأرخميدس وغيرهم، لأن الطرح الذي يتجه نحو الماضي هو في

حقيقته تراجع وليس تقدما، لأنه سيكون في موقع مناقض لمؤشر التقدم الذي يتجه دوما نحو الأمام. هذه الرؤية نجدها عند الفيلسوف الفرنسي فونتينيل (1657- 1757) الذي ساهم في بعث روح نظرية التقدم، بعد أن رفض نظرية التدهور (أنظر التعليق رقم 3) التشاؤمية، لأنه التصور الذي من شأنه أن يعطل ويشل إرادة الانسان، حيث لا يبقى معه شيئا من الأمل في النظر الى المستقبل. إن فونتينيل الذي رفض فكرة التدهور لأنه اعتبر أن الشيخوخة الإنسانية لا يعني أبدا الاضمحلال والتوقف، بل العكس تماما لأن التراكم سيؤدي إلى ما هو أكثر حكمة، وسينعكس ذلك لامحالة على تحقيق انتصارات أخرى أكثر فأكثر. بهذا المنطق انتصر الموقف الثاني الذي يؤيد الحداثة ضد الموقف المناصر للتراث، وخاصة مع مستجدات العلم وكشوفاته الجديدة التي فندت وكذبت الكثير من مزاعم القدماء، والأمثلة كثيرة على ذلك حيث يصعب حصرها، ومثال ذلك الحقائق العلمية التي أكدتها الملاحظات والتجارب مع كوبرنيك وغاليلي ونيوتن وغيرهم، الذين قوضوا نظريات أرسطو مثلا، سواء في الكوسمولوجيا أو الفيزياء، مما يعني أن سلطة التجربة أقوى من سلطة التعاليم وحكمة القدماء. لذلك اتسم القرن السابع عشر إلى القرن الثامن عشر بذلك الصراع الحاد بين أنصار الحكمة القديمة الناتج عن التعصب الديني للمذهب الكاثوليكي الذي كان يلاحق ويضطهد كل من يخرج أو يشكك في المعتقد القديم، وهو ما مارسته السلطة السياسية، ممثلة في حكم لويس الرابع عشر، أما السلطة الدينية فنجدها في رجال الدين ومحاكم التفتيش التي أنشئت في القرن الثالث

عشر(1233)، وامتدت إلى القرن الثامن عشر، أين طغت النزعة الإكليروسية (أنظر التعليق رقم: 4)، لذلك كانت الملاحقات والاتهامات بالهرطقة لكل من يخالف المقدس، والأمثلة كثيرة على ذلك، فقد لوحق غاليلي وأحرق جيوردانو برونو، زيادة على الحروب الطاحنة بين المذاهب الكاثوليكية والبروتستانتية، دون أن ينجو الفلاسفة من ذلك كما هو الشأن مع ديكارت ومالبرانش الذين آمنوا بالعلم والعقل، حيث كانت التهمة للشك الديكارتي أنه يوصل إلى التشكيك في أصول المعتقد اللاهوتي المسيحي (هاشم، 2005: 164)، لكن الصراع حسم لصالح الاتجاه التقدمي التتويري الذي أراد أن يجعل من الفلسفة في مقابل التراث التقليدي المسيحي الذي ينتهك مسلمات قوانين العلم والمنطق، بمعنى الرفض للدين المنغلق المترمت، أو حتى كله، ورفض أخلاق التقشف و الزهد في الدنيا التي تجعل السعادة إلا في الدار الآخرة فقط (هاشم، 2005: 221).

إن روح فكرة التقدم في وجوهرها نجدها حاضرة بقوة أكثر في القرن الثامن عشر، حيث أضحت التقدم العلمي مرادف للتقدم الإنساني، وأن طبيعة العقل وجوهره معادل ومساو للعلم، لذلك اعتبر أن التقدم على مستوى العلوم التجريبية لابد أن يكون نموذجا لتقدم العلوم الأخرى، بما في ذلك العلوم الاجتماعية، وهي الحركة الفكرية التي ضمت عددا كبيرا من الفلاسفة: ديدرو، ودال مبير، وكوند رسيه، وماركس، ومونتيسكيو، وفولتير، و ج. س. ميل، وأجست كونت، كممثلين أساسيين لهذه الحركة، وكان هدفهم إظهار أن الإنسان قادر على تغيير واقعه إذا تحرر من الأفكار المسبقة التي

تكبله، وذلك بالاعتماد المطلق على العقل وتحكيمة في كل الميادين، سواء في أمور الدين، أو السياسة، أو الأخلاق، أو غير ذلك، وذلك بمقتضى علمنة المجتمع في كل مناحيه المختلفة، فيكون العلم والعقل معاً النموذج الأمثل لكل تقدم وتحضر، وأضحى ينظر للميتافيزيقيين أنهم ضحايا الوهم والخداع. هذه الروح الجديدة أكدت على أهمية المعرفة لتحقيق التقدم جعلت بعض التنويريين، مثل مونتييسكيو مثلاً في مؤلفه "روح القوانين" يعتقد أن تفسير التاريخ البشري يقتضي استبعاد فكرة العلة الغائية والعناية الإلهية، بسبب وجود قوانين مادية أو أخلاقية كافية حتى تحكم الحضارة وتوجهها إما نحو التقدم أو نحو الانهيار (بيوري، 1982: 132)، وعلى المستوى الساسي ميز بين أنظمة الحكم الثلاث: الملكي، الديكتاتوري، والجمهوري، معتبراً أن النظام الجمهوري هو أفضل أنظمة الحكم، وداعى إلى ضرورة الفصل بين السلطات مع الحفاظ على التوازن بينها، وهي: السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية. أما فولتير فقد عزز أفكار مونتييسكيو في استبعاد العلة الغائية والعناية الإلهية، لأنه رأى أن التاريخ البشري لا يجب أن يكون بحثاً يدور حول الإنسان أو لسرد أحداث وسير الملوك وأخبار البلاط، وإنما يكون من أجل الوقوف على أسباب ومعوقات التقدم، كالتعصب الديني الذي يشعل الحروب والنزاعات، إلى ما هو أفضل للعالم والارتقاء به نحو العدالة والمساواة والرفاهية. وفي كتابه "مقال عن العادات" يظهر فولتير ذلك صراحة عندما يقول إن العديد من المؤرخين ينشغلون بالمعاهدات والحروب، أما أنا وبعد أن قرأت أكثر من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف معركة وبضع

مئات من المعاهدات، لم أجد نفسي أكثر حكمة من قبلها حيث لم أتعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة...، إن مجال التاريخ يجب أن يتسع لما هو أهم من ذلك ليتتبع سير العقل البشري في الفلسفة والبلاغة، وفي الشعر والنقد...، وكل ما يمثل شخصية الشعب... وإن سئلت: أي هؤلاء الرجال أعظم: الاسكندر قيصر تيمور لنك أم كرمويل؟ لأجبت أن اسحاق نيوتن هو أعظمهم جميعا بلا شك...، لأن العظمة الحقيقية إن تجلت في منحة العبقرية التي تجود بها السماء لإنسان ما، فإن مقياسها في الانتفاع بهذه العبقرية حتى تستفيد منها الإنسانية وتبهر الطريق للآخرين...، إن التاريخ الحق هو تاريخ العلم لأنه يكشف عن تقدم العقل البشري...، منذ اكتشاف الخوارزمي للجبر إلى منجزات عصرنا الحالي (صبحي، 1975: 83). أماجون جاك روسو (1712- 1778)، وفي مؤلفاته مقالة في أصل التفاوت، وكتاب العقد الاجتماعي، وإميل في التربية، وهي في معظمها تدور حول مصير الفرد داخل المجتمع المعاصر، والتهديدات التي تشكلها المدنية، فعرف بأفكاره الجريئة بنقده للنظم الاجتماعية القائمة في فرنسا، سواء في المجال الاجتماعي أو السياسي أو الأخلاقي والتربوي، بسبب ما كانت تمارسه من اضطهاد للإنسان بأفكار تقليدية، وباعتباره واحدا من أقطاب نظرية العقد الاجتماعي، دعا إلى الحكم الديمقراطي، أين يتنازل جميع الأفراد عن حقوقهم لصالح المجتمع حيث يكون الشعب سيدا وحرًا في اختيار الحاكم كممثل عن إرادته.

أما جون لوك (1632- 1704) فقد نظر لأصل الدولة، حيث أرجعها إلى فكرة العقد الاجتماعي، مؤسسا بذلك للعلاقة بين

الحاكم والمحكوم، بتقييد سلطة الحاكم باعتباره طرفاً في العقد. لكن القطيعة مع الدين فبدأت المرحلة مع دافيد هيوم (1711- 1776) التي يمكن اعتبارها الأكثر خطورة، فقد عرف بنزعتة الشكية، سواء فيما يتعلق بالدين أو حتى بعض أنساق العلم، خاصة مبدأ السببية الذي فسره تبعاً لتأثير التعود كمبدأ نفسي. أسس للفلسفة الريبية (الشك) في الوجود والأخلاق والدين (الحفني، دت: 519). وفي التأسيس الليبرالي الاقتصادي نجد مع آدم سميث (1723- 1790)، الذي اشتهر بوضع أسس الاقتصاد السياسي، وكان من أبرز منظري الليبرالية الاقتصادية. أظهر أن التأثير العفوي للأناية (المصلحة) كفيل بالتقدم الاقتصادي وزيادة ثروة الأمم، بشرط عدم تدخل الدولة في مجرى الأمور، مما كان معتمداً من آليات التخطيط، وجعلها محكومة بقوانين موضوعية تفادياً لمختلف الأزمات، وهي: الملكية الفردية، الحرية الاقتصادية، قانون العرض والطلب).

ثم إن ما زاد لنظرية التقدم خصوبة عند التنويرين والتأريخ له هو الاهتمام الكبير الذي حظيت به فكرة التقدم عند بعض الفلاسفة مثل تيرجو (1727- 1781) في كتابه "أحاديث عن التاريخ العالمي" الذي تصور أن التاريخ العالمي يتجه نحو التقدم بخطى ثابتة، معللاً ذلك بعناصر وشروط عامة، أولها العقل الإنساني ومشاعره ثم البيئة الجغرافية والمناخية (بيوري، 1982: 138). أما الموسوعيين فقد اعتبروا أن مشكلة الجنس البشري تكمن في تحقيق الإنسان للسعادة والترفع اعتماداً على قدراته، وقد عملوا من أجل ذلك على النشر الواسع للمعرفة من أجل القضاء على الجهل وتوعية الناس، حتى تتحرك

الحكومات إلى تغيير قوانينها لبلوغ الكمال الإنساني (بيوري، 1982: 145). ومن هذه النماذج نجد خاصة مخطط الفيلسوف الفرنسي "كوند رسيه" الذي اهتم أكثر بنظرية التقدم البشري.

2.2. كوند رسيه وفكرة التقدم:

كوند رسيه (أنظر التعليق رقم: 5)، من الذين آمنوا بنظرية التقدم كما يظهر في كتابه "لوحة تاريخية لتقدم العقل البشري" متأثراً في ذلك بأعمال وفلاسفة ومفكرون سبقوه، مثل باسكال الذي كتب أن تعاقب البشر خلال القرون الطويلة المتلاحقة يجب أن ينظر إليها كوحدة مستمرة، تزداد معارفها بصورة مطردة، وإعلان ديكارت على إمكانية الإنسان لتحقيق الكمال، إضافة إلى إيمان بيبكون بالتقدم اللانهائي...، أما مؤلفه الكبير عن نظرية التقدم الذي قسمه إلى عشر فصول، وكل فصل خصصه لعصر من عصور الحضارة، يبدأ فيه بإنجازات الإنسان البدائي البسيطة إلى غاية الفصل التاسع، وهي إنجازات عصره، أما الفصل العاشر فقد خصصه لتبؤاته بالمستقبل واستشرافه له. وقد تميزت رؤيته بالتفاؤل الكبير لمستقبل البشرية، رغم حكم الإعدام الذي كان يطارده (بدوي، دت: 19)، وتظهر مراحل وفصول تقدم العقل البشري كالآتي:

المرحلة الأولى: تمثل مرحلة اجتماع الأفراد على هيئة جماعات

وأقوام، وتكونت الأسرة، ونشأت اللغة واخترع الإنسان أسلحته، وكان رؤساء العشائر يحددون التنظيم الاجتماعي والسياسي والأخلاقي، فتكونت لدى الإنسان مفاهيم بدائية عن الكون، كانت

بداية الطب بالسحر، عرفت الأعشاب الطبيعية ولكن الإنسان كون حولها معتقدات سحرية.

المرحلة الثانية: هي حضارة الشعوب الرعاة، حيث استأنس فيها الإنسان بالحيوان لتحسين طرق معيشتها، أدرك فيها الرعاة أهمية مراقبة النجوم في فترات الراحة، فتتحقق تقدما محدودا في علم الفلك، برزت أفكارا تدعو إلى الإيمان بقوى خارقة للطبيعة، وأنواعا من العبادات المنتظمة، وظهرت فئات من الناس تدعي لنفسها القداسة والرئاسة الروحانية واحتكرت ممارسة الطب والعلاج لتكون لها قوة السيطرة على العقول، وهي مرحلة أمدتها طويل، امتدحها بعض الفلاسفة رغم ما فيها من ركود وسموها بالحالة الطبيعية لأنها كانت مصدرا للحكمة والفضيلة، وذمها البعض الآخر وسموها بحالة الغباء والكسل (بدوي، د.ت: 37-38).

المرحلة الثالثة: هي مرحلة الزراعة واختراع الكتابة: تيسر قيام الزراعة في مناخ ملائم وتربة صالحة وقد ساعد الإنسان في ذلك بعض الحيوانات التي استأنس بها وابتكر بعض أدوات الزراعة، بدأت مظاهر الغزو، فكان أن نشأ الرق وتكون النظام الإقطاعي: نبلاء يرثون ورقيق مرتبط بالأرض. ونظرا لحاجة المزارعين إلى تصريف منتجاتهم فقد نشأت المدن، كذلك نشأت بعض العلوم المرتبطة بالزراعة كالمساحة والحساب، وكان لا بد من التدوين، وإن كان محصورا عند طبقة الكهان.

المرحلة الرابعة: من التدوين إلى تقسيم العلوم، تعكس هذه المرحلة الخطوات الأولى في تقدم الفكر البشري، بعد أن تلقى اليونان

تراثا واسعا وفنونا عديدة ومعارف علمية ومعتقدات دينية من الشرق. لكن ما ميز اليونان انعدام طبقة الكهان المعروف عنها احتكار العلم وتوظيفه كقوة، مثلما كان حال الحضارات الشرقية، فكان أن نشأ الفكر الحر عند اليونان، فنشأت الرياضيات على يد فيثاغورس، وفكرة الآلية عند ديمقريطس، ولكن مفكري اليونان أسأؤوا حينما لم يأخذوا بالتجربة، وحتى حينما حاول سقراط أن ينزل الفلسفة من السماء إلى الأرض أعادها أفلاطون إلى السماء، ومع ذلك كانت لهذا العصر إسهامات جوهرية تمثلت في العلوم الرياضية المنظمة والعلوم السياسية، ازدهر الأدب والمسرح والفنون الجميلة (صبحي، 1975: 188).

المرحلة الخامسة: هي مرحلة تقدم العلوم منذ تقسيمها: وتبدأ هذه الفترة من أرسطو وهو لم يحصر العلوم في تصنيفه فحسب بل طبق المنهج الفلسفي على الخطابة والشعر، وفي الوقت نفسه استقلت بعض العلوم كالرياضيات والطب. ولما خضعت اليونان للدولة الرومانية، أقام بعض العلماء في مدينة الإسكندرية بعيدا عن استعباد روما التي كانت تبسط سلطانها على جزء كبير من العالم القديم، وقد أخذت عن اليونان الفن والأدب ولم تقدم سوى شيئين: التشريع ومعبد البانتين أين كانت تعبد كل الآلهة، لتتهياً الأذهان إلى فكرة الإله الواحد، بعد ظهور المسيحية وانتشارها كدين جديد، ضعفت الإمبراطورية الرومانية، وتدهورت العلوم والفلسفة.

المرحلة السادسة: من انحطاط العلوم الى بعثها: بعد تراجع العلم، انتشر الجهل وشاع الفساد وساد حكم القوة، فدمرت غزوات البرابرة حضارة الرومان بآدابها وفنونها ورخائها. ومن ناحية أخرى

أدخلت الكنيسة تنظيمًا إقطاعيًا يجعل الشعوب فريسة لاضطهاد ثلاثي: الملوك والقادة العسكريين والكهنة، كان الكهنة يملؤون الفكر بخرافات ويحرضون الأمراء على إعدام وحرق من يستتكر أباطيلهم. أما في الشرق فقد حمل المسلمون تراث اليونان وتقدمت بعض العلوم، وكان ذلك كافياً لتبنيه أوروبا من غفلتها.

المرحلة السابعة: من بعث العلوم حتى اختراع الطباعة: ثمة أربعة أسباب نبهت الفكر الإنساني وأيقظته من سباته: أ. النفور من تسلط الكنيسة وفقدان الاحترام لرجال الدين، الأمر الذي انعكس على الدين نفسه.

ب. تحرر بعض المدن وسعي بعض الملوك إلى نيل تأييدها ضد النبلاء.

ج. الحروب الصليبية: وهذه وإن كانت وليدة التعصب فإنها جعلت المسهمين فيها يحتكون بالعالم الشرقي وحضاراته وعلومه. د. نشأت الجامعات التي أصبحت مراكز للفكر، إلى جانب الاختراعات كالطواحين الهوائية وأدوات قياس الزمن والبوصلة ومعامل الورق واكتشاف البارود، ومع ذلك لم يتخلص العقل تماماً من المتاهات اللاهوتية (صبحي، 1975: 189).

المرحلة الثامنة: من اختراع الطباعة إلى تصدع السلطات التقليدية: ثمة ثلاث وقائع كان لها أهميتها في هذه المرحلة، وهي: اختراع آلة، واحتلال المسلمين القسطنطينية، واكتشاف العالم الجديد، ثم انبعث الفكر الحر الذي يتجلى في الإصلاح الديني، لأن قيام البروتستانتية ما يعني أنه لكي يكون المرء مخلصاً لدين المسيح

فلا بد أن يبدأ برفض تعاليم قساوسته، لذلك كانت دعوة مارتن لوتر تعبيرا عن نصف التحرر، ويمثل النصف الثاني من تجديد الفكر الحر، ظهور أفكار حقوق الشعب، وتقييد حرية الملك، كما ظهرت في العلوم مناهج جديدة. ولكن رغم ذلك فلم يتحرر الفكر تماما لأن التربية ظلت في أيدي رجال الدين، كما كانت الأفكار الجديدة تلقى اضطهادا رسميا دينيا.

المرحلة التاسعة: برز فلاسفة وعلماء كبيكون وجاليليو وديكارت: لقد بين بيبكون المنهج التجريبي لدراسة الطبيعة وحث على الملاحظة والتجربة أما جاليليو فقد أحدث ثورة في الفلك، كما أفاد ديكارت بمنهجه الرياضي وإن أخطأ حينما لم يعط للتجربة حقها.

إن التعاقب الحضاري الذي رسمه كوند رسيه للعقل البشري عبر التاريخ، كان يرى فيه التوجه نحو المستقبل المأمول، لأنه سيكون أكثر تقدما وازدهارا، نجد ذلك في المخطط العاشر الذي خصصه للتقدم، إذ نجد فيه النزعة التفاؤلية لمستقبل الإنسانية، لأنه سيزول فيه الظلم بين الأمم، وتسير نحو السعادة في جوانبها المختلفة: الفكرية، والخلقية، والاجتماعية (صبحي، 1975: 191).

3. تداعيات فكرة التقدم على منظومة القيم:

إن نظرية التقدم العلمي، رغم ما حملته من بشائر وتفاؤل بمستقبل واعد للبشرية، باعتبار أن حركة التاريخ تتجه في مسار خطي يتجه حتما نحو التقدم والازدهار، وزوال للظلم بين الأمم، وتحقيق السعادة في جوانبها المختلفة: الفكرية، والخلقية، والاجتماعية...، إلا أن حركة التاريخ وأحداثه كشفت غير ذلك، لأنه

منذ اللحظة التاريخية للثورة العلمية الأولى تشكل وعيا جديدا يعتمد أساسا على العقلانية التجريبية كمرجعية، ليتطور فيما بعد إلى تكون نموذج معرفي آلي يقوم إلا على معطيات الملاحظة والتجربة والحساب، الذي بلغ دروته مع نهاية القرن التاسع عشر. هذا التحول أحدث شرخا كبيرا أو ضربة قاصمة لمنظومة القيم المجتمعية، فبعد أن كانت مرجعية الإنسان في القرون الوسطى هو الدين المسيحي، فإنه سرعان ما انتقلت وتحولت نحو اختصاص العلم والعلماء، ما أدى إلى تقويض سلطة الكنيسة ورجالها، فبدأ الدين والتدين في التراجع والتدهور بسبب عدم التناغم بين مستجدات الثورة العلمية والوحي المسيحي، فأضحى ينظر إلى الكنيسة على أنها إحدى قلاع القوى الرجعية القديمة التي يجب تجاوزها وتخطيها، لاتهامها بدورها الحامل والراعي للأوهام والخرافات التي كانت وراء تخلف أوروبا في القرون الوسطى (تارناس، 2010: 372).

ثم أن الثقة بالتقدم الإنساني كعقيدة أساسية، من خلال الاعتماد والتعويل على الذكاء الإنساني في فهم أسرار وقوانين الطبيعة للسيطرة عليها وتسخيرها لمصلحة الإنسان شكلت عقيدة جديدة تكاد تكون مساوية ومعادلة للإيمان الإنجيلي فيما يخص نظرية الخلاص الروحي للإنسان. إن الثورة الكوبرنيكية التي غيرت مركزية الكون من الأرض الثابتة إلى الشمس أحدثت تصدعا كبيرا على مستوى المفاهيم والعقائد، فإنزال الأرض من عرشها كمركز للكون أسقط وتبددت معه فكرة أن الكون متركز حول الإنسان باعتباره طرفا أساسيا في عقيدة الكتاب المقدس، على أن الكون

خلق من أجله، لكن هذا التحول سيجعل من وجود الكون دون أي غاية أو حكمة تذكر، والإنسان كذلك سيؤول إلى قضية ثانوية غير ذات دلالة أو مغزى. وهذا التحول سيكون أعنف مع ظهور النظرية الداروينية في القرن 19، حيث تعرضت مكانة الإنسان الروحية لإهانة وتهجم شديد. لقد أظهر داروين الإنسان وكأنه كائن لا يختلف عن الحيوان، لأنه وجد وترقى في سلم التطور كنتيجة لقوانين الطبيعة، بحيث أصبح من الصعب النظر إليه على أنه مخلوق مكرم من رب نبيل، باعتبار أن وجود التحول العضوي واللاعضوي كنتيجة لسنن الطبيعة ولا شيء للمشيئة الإلهية في ذلك (تارناس، 2010: 389).

في ظل التطورات العلمية الحديثة، فقد تهاوت مكانة الدين وخاصة بعد بروز النظريات الجديدة التي ركزت على الجانب المادي للوجود، بحيث كان لنظريات جاليلي وديكارت ونيوتن وداروين التي أسست للآلية تأثيرا كبيرا على وعي الإنسان الغربي، فقد أدت إلى تحديد مكانة الإنسان في الكون مع التقليل من أهميته الروحية والأخلاقية، على أن حقيقته لا تتعدى أن يكون مجرد كائن آلي يتبع ويخضع لقوانين الطبيعة والجبرية، وأن الأخلاق والقيم هي مجرد اختراعات اجتماعية للحماية والازدهار البشري لا أكثر.

إن فكرة التقدم التي كانت عقيدة لدى التنويريين، حيث كان الأمل أن يتجه العالم نحو ما هو أفضل، إلى مستوى عظيم من الإنجازات البشرية في التصنيع والإنتاجية وتوفير أسباب الراحة والرفاهية وارتفاع المستوى المعيشي. ولكن الاستعمال غير عقلاني، للعلم والتقنية بعيدا عن الضوابط الأخلاقية ساهم بشكل كبير في

عدم تحقيق أفكار التنوير مقاصدها، وأدت إلى نزعات تشاؤمية نتيجة الانتكاسات التي مرت بها البشرية، خاصة في التاريخ المعاصر نتيجة الصراعات الدموية بين البشر كما هو الحال مع الحروب الكونية الأولى والثانية، التي أظهرت إلى حد ما عبثية الصراع بين الإنسان والإنسان، والتي يمكن اعتبارها ثمرة أو امتداد طبيعي للنزعة الآلية المادية الوثوقية التي تسقط من حساباتها كل مرجعية قيمية. ثم إنّ النظر إلى العلم والتقنية على أنهما شيء محايد لا لون لهما، فهما ليسا شرا في ذاتهما ولا خيرا في ذاتهما، باعتبارهما مجرد أدوات للقبض على المعرفة، كما كان شائعا عند الفلاسفة قديما في طلب المعرفة لذاتها، لكن الوقائع بينت زيف الادعاء، لأنه مع القرن الثامن عشر تشكلت الايديولوجية العلمية البرجوازية بسبب التوافق بين النظام البرجوازي والعقلانية العلمية التي اعتمدت في تحليل ودراسة مختلف الظواهر سواء كانت طبيعية أو حتى إنسانية، حتى بات ينظر إلى الإنسان على أنه واحدا من الظواهر أو موضوعات التي تقبل القياس والكم، وأنه مجرد شيء ليس وراءه روح ولا أساس لوجودها. فكانت النظرة الآلية للعالم ككل بما في ذلك الإنسان الذي أضحي مجرد أداة تستعمله الفئة المسيطرة داخل المجتمع، فهو لا يتعدى أن يكون آلة بشرية، ويكفي أن يمد بالغذاء كوقود ليكون وسيلة لتحقيق أعلى المكاسب والأرباح، وهذا ما يؤكد التوصيف للإنسان الرأسمالي على أنه شخص معه مسطرة وميزان وجدول ضرب، لأنه دوما في حاجة إلى استعمالها على أن يزن ويقيس أي حزمة ولو كانت بشرية بهدف تحديد ثمنها على أساس ما أنتجه وما استهلكه وما بذله من جهد وما

قدر المال الذي يأخذه (روز وآخرون، 1990: 61)، لذلك فإن تحول العلم والتقنية عن نشاطهما الأساسي، إلى أدوات لتسيير شؤون الحياة كلها جعل مستقبل البشرية على حافة الدمار والخراب...، كما عبر عنه الفيلسوف الفرانكفورتى إيريك فروم بقوله: إن الإنسان يبقى هو الحيوان الوحيد الذي يحارب بعضه بعضا ويمارس القتل الجماعي (الحاج صالح، 2013: 14).

كما أن النزعة الآلية ألحقت بالإنسان والإنسانية كوارث لا تعد ولا تحصى، فقد سلبت حريته وأهينت كرامته وهدد وجوده وبقائه، نتيجة لعدم العودة إلى أية مرجعية معيارية أخلاقية، وهو التراجع الذي أنتج العديد من القيم المتناقضة، غير الإنسانية، كقيم النهب المادي إلى درجة العبادة لها، نتيجة الاعلاء بالفردية وإهمال الجماعة، ما جعل الحياة تفقد معناها بسبب انعدام القيم الأخلاقية الثابتة، وأضحى العلم والتقنية الغاية الأساسية (جارودي، 2002: 47).

4. هابرماس وأمراض الحداثة الغربية:

من داخل الفلسفة المعاصرة، نجد المدرسة الفرانكفورتية، وعلى رأسها الفيلسوف يورغن هابرماس (أنظر التعليق رقم 6)، الذي يرى أنه في ظل أجواء التكنولوجيا المعاصرة تتشكل مظاهر الاستلاب للإنسان، بعد أن يتم إضفاء صفة العقلانية على ما يعانيه من نقص في الحرية، لأن الاعتماد على العقلانية الأداتية (أنظر التعليق رقم 7) يشكل السبب الأساسي فيما آلت إليه المجتمعات الغربية المعاصرة من أزمات ومآسي التي أفقدت الإنسان الغربي المعاصر هويته، إذ تحول الإنسان من غاية إلى مجرد وسيلة أو أداة لتحقيق مصالح الشركات الكبرى

ومكاسبها، وهو ما جعل المجتمع يفقد لأبسط شروط الحياة الإنسانية الأخلاقية اللائقة بفعل علاقات السيطرة والخضوع لمشاريع وحسابات المؤسسات التكنولوجية الكبرى، كمؤشر عن التحكم اللاعقلاني للمجتمع، وهو ما يكشفه هابرماس في نقده للعقلانية الأداتية، إذ يرى أن اليوم تتأبد السيطرة ويتسع مداها وفي هذا العالم، تقدم التقنية أيضا العقلنة الكبيرة للحرية الإنسان، وتبرهن على استحالة أن يكون الإنسان مستقلا، على أن يشكل حياته ذاتيا (هابرماس، 2003: 47)، إلى درجة أن رواد الجيل الأول للنظرية النقدية (أنظر التعليق رقم 8)، خاصة الفيلسوفان هوركهايمر وأدورنو اللذان اعتبرا أن العقل الأنواري انحرف عن أهدافه، حيث لم يعد قادرا على تحقيقها، أين تحولت فكرة التقدم إلى انحطاط وتراجع كلي، لأن المفارقة التي وقف عليها الفيلسوفان، أن العقل التنويري دمر نفسه، فيكون بذلك قد انضم إلى العلم الأسطوري الذي فشل على أن يتحرر منه. باعتبار أن العقل تحول أضحى كآلة رياضية تعتمد إلا على التكميم والقياس والتوجه نحو ما هو تطبيقي ونفعي، بعد أن سوى بين الإنسان والأشياء قسرا، فوحد بين مشروع التحكم في الطبيعة ومشروع الاستعباد للإنسان في مختلف أنشطته. فالعمل نحو السيطرة على الطبيعة يكتسح كل شيء بما في ذلك الإنسان، إذ يغدو هو أيضا بدوره موضوعا وهدفا للتنظيم والتحكم والتوجيه مثله مثل الطبيعة، باعتباره جزءا من الطبيعة تنطبق عليه مقولات الكم في أشكال من القوانين الرياضية التي تتحكم في ظاهرة السلوك الإنساني (هوركهايمر وأدورنو، 2006: 62).

يرفض هابرماس من حيث المبدأ القول بموضوعية العلم وحيادتيه كما تدعي النزعة العلمانية (أنظر التعليق رقم 9)، لأن ذلك في الحقيقة وهو تبرير فاضح لإعطاء الصلاحية المطلقة للعلم على إعادة تقييم الوظائف الثقافية التقليدية واستبعاد كل عنصر غير مرغوب فيه علميا، وبمعنى آخر، أن العلم يتحول إلى واهب للمعنى (هابرماس، 1995: 120)، لذلك يربط هابرماس ظهور التشيؤ (أنظر التعليق رقم 10) بالنزعة العلمانية، أين ينظر إلى الظواهر الإنسانية كأنها وقائع وأشياء طبيعية. ويضيف هابرماس أن التمس للعلم والتقنية داخل المجتمع الصناعي كان وراء ارتفاع وتزايد في الضغط المؤسسي من أجل رفع إنتاجية العمل، وذلك بإدخال تقنيات جديدة إلى النظام الإنتاجي، ما جعل العلم والتقنية القوة الإنتاجية الأولى التي تمارس السيطرة على كل شيء، وخاصة المجتمع، حيث تكون مسؤولة عن بناء وتشكيل المجتمع والقيم والعقل من جديد، وهو ما سيجعل المعرفة العلمية تمارس دورا أساسيا ومحوريا في إعطاء المشروعية للأنظمة سواء كانت سياسية أو اجتماعية، ومن تم تكون قد حلت محل الدين (الميتافيزيقا) الذي كان سابقا مصدرا لهذه المشروعية (الحاج صالح، 2014: 140).

في الميادين العلمية المتخصصة نجد التهديد الصريح للقيم الإنسانية، فعلى مستوى البيولوجيا مثلا نجد أن التقنيات التطبيقية، على الرغم من سقف الآمال التي رفعتها، فإنها شكلت تحديا خطيرا للكثير من القيم والأعراف الإنسانية، بما في ذلك القوانين الوضعية والأديان السماوية، لذلك ظهرت العديد من الاعتراضات والاحتجاجات ذات الطابع الأخلاقي. من ذلك ما نجده عند هابرماس الذي يرفض من

حيث المبدأ تقنية التعديل الجيني داخل الهندسة الوراثية، لأن مآلاتها سيكون التحكم في برمجة شخصية طفل المستقبل بناء على مقاس أطراف خارجية لا علاقة لذلك بحرية الشخص وإرادته، معتبرا ذلك من مظاهر التلاعب بجينات إنسان المستقبل، ما يجعله رهينة لإنسان الحاضر، مما يعني إمكانية المتاجرة بإنسان المستقبل على ضوء المعايير التي يحددها إنسان الحاضر، وهو في نظره تأكيد للعبودية والسيطرة التي يمارسها إنسان اليوم على إنسان الغد، فيقول: تتغلب السيطرة من خلال التدخلات الوراثية البشرية على الطبيعة إلى فعل تسلط على الذات، وهو ما يتعارض مع أخلاقيات الجنس البشري (هابرماس، 2007: 61).

من جهة أخرى يرى هابرماس أن حضور الفعل الاستراتيجي الأدوات يكشف عن شكل السيطرة العلمية السياسية، باعتبار أن التقنيات عندما تكون قادرة على اختراق التركيبة البيولوجية للإنسان وإمكانية التحكم ببنية الجسدية، فإن هذه المرحلة تعد أعتى مراحل الهيمنة والسيطرة على الإنسان بواسطة الخبراء من جهة والسياسيين من جهة أخرى، إلى حد إلغاء حريته وقتل كل اختياراته، وإن كان من منطلق التحسين والعقلنة التي يهدفها السياسيون مع العلماء (المحمداوي، 2015: 174)، لأن ذلك سيؤدي إلى الحد من حرية الإنسان وقتل اختياراته بذريعة تحسين النوع الإنساني، باعتبار أن لحظة اقتحام الهندسة الوراثية للجسد البشر تكون قبل الولادة وليس بعدها، ومن ثم لا يرى مسوغا أو مبررا للفصل أو القطيعة في سيرورة تشكل وتكون

الإنسان، سواء قبل الولادة أو بعدها، لأن شخصية الطفل تظل متماهية مع الإنسان طول حياته.

يحدد هابرماس مجالات تصادم تقنية الجينوم البشري مع القيم العالمية للإنسان التي يتوجب حمايتها والدفاع عنها، وتتمثل في:

◀ إن التدخل الوراثي الذي لا يتأسس على إرادة الشخص المعدل وراثيا وإنما يتم من طرف خارجي، وخاصة الزوجين، من منطلق الحرية التي توفرها الدولة. وأن ذلك سيعطي حقا للأشخاص غير المعنيين، بما في ذلك الآباء، بتحديد القيم الإنسانية لشخص لم يولد بعد، وأن التزويد بهذه الخصائص وراثية الجديدة تتم في غياب إرادة المعني أو المعدل.

◀ إن الشخص المعدل جينيا سيكتشف هذا التلاعب الجيني مستقبلا (بعد الولادة)، ومن الطبيعي أن ذلك سيكون محل رفضه وسخطه، لأن ذلك لا يعني إلا شيئا واحدا لدى هذا الشخص (الابن)، وهو أنه تم تحويله إلى مجرد موضوع أو شيء، دون أي اعتبار لكرامته كإنسان.

◀ إن الشخص المعدل وراثيا سيدرك ويفهم نفسه كشخص قد عدلت صفاته الخاصة، لكنه يظل متماهيا مع نفسه، لأنه قادر على اتخاذ موقف ما تجاه التدخل الجيني، ويرفض بالمقابل أن يمتلك ما عدل في شخصيته من التعديلات الوراثية التي حولته إلى موضوع. (هابرماس، 2007: 106).

في ظل تقنية الجينوم البشري (التدخل الاستراتيجي)، يتم فيه استبعاد إرادة الشخص المعدل جينيا، فيسجل هابرماس واقعة غير

محمودة، وهي التحالف والتعاون بين ثلاث أطراف بشكل لا تخدم القيم الإنسانية، وهم: الأهل والتقنية والسياسة، معتبرا ذلك تكريسا للسيطرة والهيمنة التي تمارس على إنسان الغد، باعتبار أن التغيير في البنية العامة ينتج عنه تغيير في التجربة الأخلاقية، حيث أن التدخلات البيو تقنية لا يتمخض عنها تداعيات وراثية فقط، بل كذلك الوازع الأخلاقي، وكأنه في إطار الإيديولوجيا السياسية يتم رسم وتحديد الإنسان المصنع أو المفبرك مسبقا، وتظهر هذه الأطراف في:

- السياسي: هو الذي يرسم الإنسان المصنع وفق إيديولوجية المجتمع.

- الأهل: ويكون بقمع حرية الإنسان (الابن).

- التقنية: كتأكيد وممارسة للسيطرة (المحمداوي)، 2015: (176).

خاتمة:

مما لا شك أن عقيدة التقدم التي تشكلت لدى العقلانية الغربية تحديدا، قد أدت إلى تقدم العلوم النظرية، وتطورت التقنيات والتكنولوجيا، مما انعكس إيجابا على حياة الإنسان اليومية، حيث أدى إلى تقدم ملحوظ على المستوى الصحي وزادت الخدمات لرفع المستوى المعيشي وكثرت وسائل النقل والاتصال وتوسعت المدن وغير ذلك. لكن إحاطة العلم بهالة كبيرة من التقديس والتبجيل، ما عادل مكانة الدين في القرون الوسطى، حيث أضحى ينظر للعلم على أنه الحل الأمثل لكل مشاكل الإنسان، وكلمته هي الفصل القاطع، وهو التوجه الذي كان له الأثر الكبير والخطير، خاصة كما يشهد

على ذلك القرنين العشرين والواحد والعشرين، أين تراجعت الكثير من القيم التي كانت محل تقدير واحترام، وفقد الإنسان مكانته المقدسة، بعد أن تم اختزاله في ظواهر لا تختلف عن الظواهر الفيزيائية حتى يسهل تفسيرها ميكانيكيا، وهذا ما برز قويا مع الكثير من مستجدات العلوم كالوضعية مع أجست كونت وامتداداتها، والداروينية بشقيها العلمي والاجتماعي، وعلم النفس الفرويدي، والتمرد النتشوي على القيم...، وكلها تيارات كان عنوانها العلم، بعد أن اتخذته متكئا ومنطلقا لكل نظرياتها. لذلك فلم يكن من الغريب أن تبرز أصوات تنادي بضرورة لجم العلم واخضاعه لمنظومة القيم، وهو ما يكشف عن العودة القوية لأخلاقيات الممارسة في مختلف الميادين المعرفية والتطبيقية، مثالنا على ذلك المدرسة الفرانكفورتية، وخاصة رائد جيلها الثاني الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس الذي يدعو صراحة إلى ضرورة التضييق من دائرة اختصاصات العلم والتقنية اللذان أنتجا العقل الأداتي الذي استعمر المجتمع (العالم المعيش) مما تسبب في الكثير من الأمراض الاجتماعية، وبالتالي انحراف العقل الأنواري عن مقاصده النبيلة، ليكون الحل في نظره هو الانتقال إلى رحاب أوسع من العقلانية، وهي العقلانية التواصلية من أجل ترميم وإصلاح المجتمع، وذلك بإعادة بناء أواصر التفاهم والتواصل والتضامن الاجتماعي، وحتى يتم إتمام وإكمال المشروع التنويري، وفق ما يسميه بأخلاقيات المناقشة داخل الفضاء العام.

التعليقات:

1 - إذا كانت القرون الوسطى بالنسبة للحضارة الغربية مثلث عصرا للظلمات، فإن العالم العربي والإسلامي كان أكثر المناطق تقدما في العلوم بكل أنحاء

العالم، وهي الأزمنة الممتدة من القرن الثامن للميلاد إلى الرابع عشر الميلادي، والأدلة على ذلك كثيرة وفي مختلف المجالات والتخصصات. ففي ميدان التطبيق والتداوي، ويكفي ذكر بعض الأسماء المتميزة مع بعض إنتاجاتهم العلمية، ففي الطب والعلاج نجد الرازي (ت 932م) وكتابه "الحاوي"، وابن سينا (ت 1037م) وكتابه "القانون في الطب"، وابن النفيس (ت 1288م)، ووصفه الدقيق للدورة الدموية، وفي الكيمياء ما قام به جابر ابن حيان (ت 813م) فقد كان من أكثر العلماء إنتاجاً، وقد حمل لقب أبو الكيمياء، اختلف مع أرسطو في نظرية تكوين الفلزات ورأى أنها لا تساعد على تفسير التجارب، فعدل النظرية وجعلها أكثر ملاءمة للحقائق العلمية وخرج بنظرية جديدة، وابتكر علم الموازين ومعادلة المعادن وكان أول من استحضّر أحماض الكبريتيك والنيتريك، كما اكتشف الصودا الكاوية، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة، وينسب إليه استحضار مركبات كثيرة، وله بحوث في السموم، واهتم بإجراء التجارب ووصف العديد من العمليات الكيميائية كالتبخير والتقطير، والإذابة، والتبلور، ولا شك أنه بهذه الإضافات والطريقة العلمية التي سار عليها في بحوثه وتجاربه قد أحدث أثراً كبيراً في تقدم العلوم والصناعات (يمكن العودة إلى جورج صليب، الفكر العلمي العربي، نشأته وتطوره، مركز الدراسات المسيحية - الإسلامية، لبنان، 1998، ص 36). وفي علم الفلك الذي بدأت منه الثورة العلمية مع كوبرنيك ضد نظرية بطليموس، فإن للعرب والمسلمين باع كبير في ذلك، وفضل على نظرية كوبرنيك الحديثة، لأننا نجد أن العالم الرياضي ابن الهيثم (ت 1040م) قد أدى دوراً مهماً في إثارة الفلكيين العرب من أجل تجاوز بطليموس والنظريات اليونانية في الفلك، وقد أقدم على إظهار شكوكه حول نظرية بطليموس الفلكية، وكان لدى لابن الهيثم الجرأة ليقرر أن الترتيبات التي تفترضها حركات الأجرام كما هي في المجسطي خاطئة وأنه على وشك إعداد ترتيبات جديدة، ومن ثم فإننا نجد المفكرين العرب في الأندلس بعد قرن من ابن الهيثم قد قادوا ما يسمى -بالتحرد على الفلك البطليمي- وبلغ التمرد العقلي مداه (يمكن العودة إلى الحسن بن الهيثم، الشكوك على بطليموس، تحقيق علي صبرة و نبيل الشهابي، دار

الكتاب، القاهرة، ص13). ومن ناحية أخرى فإن مدرسة "مراغة" في غرب إيران التي كان فيها شخصيات مثل الأزدي (ت 1261م) والطوسي (ت 1274م)، وقطب الدين الشيرازي (ت 1179م)، وابن الشاطر (ت 1375م) قد نجحوا في الوصول إلى نظام أجرام غير بطليمي، ويمكن القول أن فلكي مراغة قد نجحوا في وضع نماذج للأجرام، وبعد ذلك قام ابن الشاطر بإجراء بعض التعديلات عليها، فيكون بذلك قد مهد لكوبرنيك على تفاصيل التناظر بين نماذج مرصد مراغة ونماذج كوبرنيك التي كشف عنها في القرن السادس عشر الميلادي. لكن السؤال الذي بحثه الكثير من مؤرخي العلم، هو متى وكيف تعلم أو اطلع كوبرنيك على نظرية مراغة، وهنا يمكن أن نذكر شهادة العالم "توبي هف" صاحب كتاب ثورة العلم الحديث، فقال: وأشد ما هو ذو دلالة خطيرة فعلا أن العلماء العرب المسلمين هم الذين مهدوا الطريق الذي أفضى إلى الثورة العلمية في أوروبا. ولقد عمل العرب على تطوير ومناقشة جوانب عدة للمنهج التجريبي وتخطيط كيفية التسليح بها. ليس هذا فحسب بل طوروا أيضا الأدوات الضرورية للوصول إلى أرقى مستويات الفلك الرياضي. علاوة على هذا فإن العمل الذي اضطلع به مرصد مراغة في القرن الثالث عشر والرابع عشر قد بلغ ذروته في عمل ابن الشاطر، فتمخض عنه تطوير نماذج كوكبية جديدة للكون، كثيرا ما توصف بأنها باكورة النماذج اللابطليمية على طول الطريق المفضي إلى العلم الحديث. فضلا عن هذا، فإن تلك النماذج الكوكبية هي ما اتخذ كوبرنيك فيما بعد، لم يكن ينقصها العامل الرياضي، أو أي عوامل علمية أخرى، العامل الوحيد المفتقد في هذه النماذج هو أن ترسو على فرض مركزية الشمس. وكان الفشل في الإقدام على هذه الوثبة الميتافيزيقية من كون مركزه الأرض إلى كون مركزه الشمس هي التي حالت بين العرب وبين إحداث النقلة من العالم المغلق إلى الكون المفتوح. (يمكن العودة إلى معنى طريف الخولي، حصاد في القرن العشرين، عالم المعرفة، ديسمبر 2000، ص 45).

- 2 - الغريب أن يكون الذي آمن بالتقدم العلمي وضرورة الاعتماد عليه، أبدى في المقابل رفضه لأعمال كبرنيك وكيبيلر وغاليلي التي اعتبرها ضرب من العبث، وخاصة القول بمركزية الأرض.
- 3 - نظرية التدهور تنظر للتاريخ على أنه يتحرك بخط دائري، حيث تكون حتمية التراجع مهما كان مستوى التقدم، لأن أي تقدم إنساني يبدأ بمرحلة الولادة ثم النمو ثم التطور الازدهار وأخيرا يكون مصيرها الذبول والاختناق ثم الانطلاقة الجديدة مرة أخرى.
- 4 - الإكليروسية: بمعنى أن الكنيسة تخلع القداسة على نفسها وتطابق بين ذاتها وبين الذات الإلهية، فيكون من الصعب التمييز بين خدمة الله وخدمة الكنيسة، والتوحد بين الدين كشئ مقدس وبين رجالاتها، فيكون رجال الدين كوسطاء بين الخالق والمخلوق بحجة عدم طهارة هذا المخلوق بسبب الخطيئ.
- 5 - كوند رسيه (1743 - 1794) فرنسي، رياضي وفيلسوف وسياسي ومؤرخ للعلوم ومصلح اجتماعي، ومن الفلاسفة الموسوعيين، ساهم في تحرير ملحق دائرة المعارف وفي اكتشاف نظرية الاحتمالات وإمكان تطبيقها في العلوم الأخلاقية.
- 6 - يورغن هابرماس: فيلسوف وعالم اجتماع ألماني معاصر، ولد في 18 يونيو 1929. يعتبر من أبرز المفكرين في مدرسة فرانكفورت، لجيها الثاني. اشتهر بنظريته عن "العقلانية التوافقية" كمخرج من الأمراض الاجتماعية التي تسببت فيها العقلانية الأداتية.
- 7 - العقلانية الأداتية: المفهوم كما يراه هابرماس أنه يحمل مضمونين: أولهما أنه يمثل أسلوبا لرؤية العالم، والمضمون الآخر يشمل أسلوبا لرؤية المعرفة النظرية. وهو عقل يهتدي بالقواعد التقنية القائمة على المعرفة التجريبية لتحقيق أهداف محددة. ويوصف أنه يقوم على استراتيجية الاختزال والنظرة التماثلية للواقع وعدم الاهتمام بأية خصوصية، بما في ذلك الإنسان كونه جزء يشبه ظواهر الطبيعة.
- 8 - النظرية النقدية: ترتبط النظرية ارتباطا وثيقا بمعهد فرانكفورت للبحث الاجتماعي بألمانيا، تأسس (عام 1923) من طرف نخبة من مختلف التخصصات (علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الاقتصاد، والنقد الأدبي والجمالي الذين

ينحدرون من أصول يهودية، بحيث أرادوا للمعهد أن يكون حراً حتى لا يتقيد بالانظم الأكاديمية والجامعية حتى ينشغل بمشكلات حركة العمال والاشتراكية والماركسية والعنصرية، إلى سنة (1934) حينما أغلقته السلطات النازية، ثم ألحق بعد ذلك بجامعة كولومبيا بنيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى سنة (1950).

9 -العلماء: هي أيديولوجية ظهرت في القرن 19، تقوم على الإيمان بالعلم في مختلف الميادين، استخدمها أول مرة عالم الأحياء فيليكس دانتك (1869 - 1917)، أين اعتبر أن مستقل البشرية مرهون بإنجازات العلم، وأنه النموذج للمعرفة.

10 -التشيؤ: يتحدد المفهوم بالنظر إلى تحول الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة، واكتسابها لصفات غامضة غير إنسانية، وهو التصور الذي من خلاله يتم نقد النظام الرأسمالي باعتباره المتسبب في تحويل البشر إلى أشياء قابلة للبيع والشراء، وإن كان لوكتاش قد ربط التشيؤ بمجال محدد وهو تأثيره في النظرية والمعرفة، فقد أضحى في نظره أن العالم الاجتماعي لا يتميز عن عالم الطبيعة (الأشياء)، ليجعل من العالم الاجتماعي طبيعة ثانية، وبالتالي ضرورة التسليم بحتمية خضوع المجتمع لقوانين ثابتة على غرار الطبيعة الفيزيائية، كما لو أنه مستقل عن الفعل الإنساني، شأنه في ذلك شأن استقلال قوانين الطبيعة عن ظواهرها، وهذا ما سيجعل الإنسان غير قادر على تغيير الواقع الاجتماعي مهما كان سيئاً، مثلما لا يستطيع تبديل قوانين الطبيعة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 -بدوي محمد، (بلا تاريخ)، مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري "كوندورسيه"، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 2 -بيوري. ج ب، (1982)، فكرة التقدم، القاهرة: مطابع الهيئة المصرية للكتاب.
- 3 -تارناس ريتشارد، (2010)، آلام العقل الغربي، ط1. ترجمة: فاضل جتكر، الإمارات العربية المتحدة (هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث).

- 4 -جارودي روجي، (2002)، **حفار القبور**، ترجمة: عزة صبحي ط3. القاهرة: دار الشروق.
- 5 -الحاج صالح رشيد. (2013)، **الإنسان في عصر ما بعد الحداثة**، الشارقة: دائرة الإعلام والثقافة ، العدد46.
- 6 -الحاج صالح رشيد، (2014)، **الوجه السياسي للعلم**، ط1. الدار العربية للعلوم والنشر.
- 7 -الحفني عبد المنعم، (بلا تاريخ)، **الموسوعة الفلسفية**، القاهرة: مكتبة مدبولي.
- 8 -روز ستيفن، وآخرون، (1990)، **علم الأحياء والأيدولوجية والطبيعة البشرية**، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، الكويت: عالم المعرفة.
- 9 -صبحي أحمد محمود، (1975)، **في فلسفة التاريخ**، الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية.
- 10 -المحمداوي علي عبود، (2015)، **الإشكالية السياسية للحداثة من فلسفة الذات إلى فلسفة التواصل**، ط1. منشورات ضفاف.
- 11 -مذكور إبراهيم، (1983)، **المعجم الفلسفي**، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- 12 -المسيري عبد الوهاب، (يناير 2004)، **قراءة في مفهوم التقدم**، نوافذ(نشرة فكرية)، الخرطوم: هيئة الأعمال الفكرية، العدد4، ص.ص (1.3).
- 13 -هاشم صلاح، (2005)، **مدخل إلى التنوير الأوروبي**، ط1. بيروت: دار الطليعة.
- 14 -هوركهايمر ماكس، أدورنو ثيودور، (2006)، **جدل التنوير**، ط1. ترجمة: جورج كتورة، بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة.
- 15 -يورغن هابرماس، (1995)، **القول الفلسفي للحداثة**، ترجمة: فاطمة الجيوشي، دمشق: وزارة الثقافة.
- 16 -يورغن هابرماس، (2003)، **العلم والتقنية كأيدولوجيا**، ترجمة: حسن صقر، منشورات الجمل.

17 -يورغن هابرماس، (2007). مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية،

ط1، بيروت: المكتبة الشرقية.

.....